تعليل الإمام بديع الزمان النورسي لوجوه الإعجاز اللغوي في القرآن

غلزار أحمد بال*

ولد الإمام بديع الزمان سعيد النورسي في قرية نورس الواقعة بشرق الأناضول سنة ١٢٩٣هـ الموافقة ١٨٧٣م، وتوفي في رمضان سنة ١٣٧٩هـ الموافقة ١٩٦٠م.

لقب بالنورسي نسبة إلى قرية "نورس" مسقط رأسه، وهو من أسرة كردية صالحة تقية تعمل بالفلاحة والزراعة، ينتهي نسبه من أبيه وأمه إلى سيدنا الإمام الحسين رضي الله عنه[٢]، فقد كان أبوه (الصوفي ميرزا) رجلا ورعا عابدا وأمه (نورية) امرأة صالحة تقية، وكان أخوه الكبير (الملا عبد الله) عالما يقوم بمهمة التدريس لطلاب العلم. وسمّاه أستاذه الملا فتح الله ببديع الزمان بعد أن وجده آية في الذكاء والحفظ، نشأ النورسي وترعرع في أسرة متدينة وكان يضرب المثل بوالده في الورع ولم يذق حراما ولم يطعم أولاده من غير الحلال حتى أنه كان يشد أفواه مواشيه كي لا تأكل من مزارع الآخرين. وعند ما سئلت والدة النورسي: ما طريقتك في تربية أولادك حتى حازوا هذا الذكاء النادر؟ أجابت: لم أفارق صلاة التهجد طوال حياتي ولم أرضع أولادي إلا على طهر ووضوء.[٣] ويقول النورسي في هذا الصدد "أقسم بالله، إن أرسخ درس أخذته وكأنه يتجدد علي إنما هي تلقينات والدتي، رحمها الله، ودروسها المعنوية، حتى استقرت في أعماق فطرتي وأصبحت كالبذور في جسدي في غضون عمري الذي يناهض الثمانين[٤].

أتقن النورسي علوم العربية وعلوم الشريعة وأضاف إلى ذلك الرياضيات والفلك

---

* باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

[٢] سعيد النورسي: سيرة ذاتية، دار سوزلر،القاهرة، ص٣٩

[٣] سعيد النورسي: سيرة ذاتية، دار سوزلر،القاهرة، ص٣٥

[٤] سعيد النورسي: سيرة ذاتية، دار سوزلر،القاهرة، ص٣٤

والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والفلسفة وغيرها وترك مؤلفات عديدة وضخمة منها الكلمات والمكتوبات والإشعاعات واللمعات ومن أهمها: "إشارات الإعجاز في مظان المجاز" و"محاكمات عقلية في التفسير" و"البلاغة والعقيدة".

الدوافع إلى الشغف بالقرآن الكريم: يذكر النورسي دوافع مختلفة للشغف بالقرآن الكريم ومنها بشارة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في الرؤيا بأنه سيوهب له علم القرآن الكريم[1] فتحمّس بعد ذلك لطلب العلم خاصة علوم القرآن الكريم حتى وقف آخر الأمر عند هذا الكتاب مسترشدا كما ألهمه الله ذلك على حد قوله وإليكم القصة على لسانه، "وجدت نفسي غارقا في الأوحال فبحثت عن طريق وتحريت عن منقذ يأخذ بيدي فرأيت السبل أمامي مختلفة وحرت في الأمر وأخذت كتاب فتوح الغيب للإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وفتحته متفائلا، فوجدت أمامي العبارة الآتية" أنت في دار الحكمة فاطلب طبيبا يداوي قلبك، يا للعجب، لقد كنت يومئذ عضوا في دار الحكمة الإسلامية فقلت كن أنت طبيبي أيها الشيخ وبدأت أقرء ذلك الكتاب كأنه يخاطبني وكان شديد اللهجة يحطم غروري واستفدت منه فوائد جليلة، ثم وجدت كتاب مكتوبات للإمام الفاروقي السرهندي رضي الله عنه وفتحته فوجدت فيه عجبا حيث ورد في رسالتين منه لفظة ميرزا بديع الزمان فأحسست كأنه يخاطبني باسمي والإمام يوصي مؤكدا في هاتين الرسالتين أن وحّد القبلة وحينما كنت أتقلب في هذه الحيرة الشديدة إذ بخاطر رحماني من الله سبحانه وتعالى يخطر على قلبي ويهتف بي: "إن بداية هذه الطرق جميعها ومنبع هذه الجداول كلها وشمس هذه الكواكب السيارة إنما هو القرآن الكريم فتوحيد القبلة الحقيقي إذن لا يكون إلا في القرآن الكريم، فالقرآن هو أسمى مرشد وأقدس أستاذ على الإطلاق، ومنذ ذلك اليوم أقبلت على القرآن الكريم، واعتصمت به واستمددت منه فاستعدادي الناقص قاصر من أن يرتشف حق الارتشاف فيض ذلك المرشد

[1] سعيد النورسي: سيرة ذاتية، دار سوزلر،القاهرة، ص٤٥

الحقيقي الذي هو كالنبع السلسبيل الباعث على الحياة ولكن بفضل ذلك الفيض نفسه يمكننا أن نبين ذلك الفيض وذلك السلسبيل لأهل القلوب وأصحاب الأحوال، كل حسب درجته فالكلمات والأنوار المستقاة من القرآن الكريم أي رسائل النور إذن ليست مسائل علمية عقلية وحدها بل أيضا مسائل قلبية وروحية وأحوال إيمانية ...فهي بمثابة علوم إلهية نفيسة ومعارف ربانية سامية"[1]

وهكذا سمع النورسي ذات يوم أن الوزير البريطاني قد قال" ما دام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نحكمهم حكما حقيقيا فلنسع إلى نزعه منهم" فحدث هذا الخبر الانقلاب الفكري في حياة النورسي إذ عزم من يومها على جعل جميع ما حصل من علوم مدارج للوصول إلى إدراك معاني القرآن الكريم وإثبات حقائقه، وأعلن لمن حوله قائلا" لأبرهن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها" فبدأ بتدبر القرآن الكريم متخذا منه دليلا ومرشدا وأستاذا في تزكية النفس وفي التعامل مع مجتمعه المريض.

كان النورسي ابن عصره وبيئته ولا شك أن الثقافة الواسعة الذي تميز بها النورسي، ودراسته المكثفة في العلوم المعاصرة، كان لها أثر كبير في فهمه للقران المجيد وإعجازه وتفسيره، ولكن من المؤسف أن معظم الذين كتبوا في إعجاز القرآن من المحدثين لم يتنبهوا إلى ما كتبه النورسي حول إعجاز القرآن الكريم. يقف قارئ النورسي في حيرة لما يجد في كتاباته إشارة إلى مئات من وجوه الإعجاز في القرآن الحكيم من نواحي متعددة مختلفة فلهذا لا يمكن للباحث أن يقدم جميع الوجوه في هذه الورقة فيركز على محور واحد فقط، وهو إعجاز القرآن اللغوي كي يمكن تقديم خلاصة الكلام في هذه العجالة.

المعجزة في اللغة: ذكر الراغب في المفردات أن كلمة-عجز-مأخوذة من عجز الإنسان، وهو مؤخره، وبه شبه مؤخر غيره قال الله تعالى: "كأنهم أعجاز نخل منقعر"

[1] سعيد النورسي: المكتوبات، دار سوزلر،القاهرة، ص٤٥٩:٤٥٧.

القمر،٢٠. والعجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر. وصار في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، قال الله " أعجزت أن أكون" المائدة، ٣١. والعجوز سميت لعجزها في كثير من الأمور.

المعجزة في الاصطلاح: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، وهو دليل يجريه الله تعالى على يد صاحب النبوة تصديقا له. يقول النورسي "المعجزة بحد ذاتها تصديق من رب العالمين لدعوى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، أي كأن المعجزة تقوم مقام قول الله: صدّق عبدي فأطيعوه. ويرى أن المعجزة تأتي لإثبات دعوى النبوة عن طريق إقناع المنكرين، وليس إرغامهم على الإيمان[١].

وجوه إعجاز القرآن عند النورسي

لم يقتصر النورسي في بيان إعجاز القرآن على قول واحد، بل أشار إلى وجوه هذا الإعجاز لا تحصى، وأن القرآن الكريم معجز لكل طبقة من الناس في كل عصر من العصور. فالقرآن في نظر النورسي بحر المعجزات ومنبعها، والمعجزة الكبرى الذي يثبت النبوة الأحمدية والوحدانية الإلهية إثباتا. يدخل النورسي إلى بيان إعجاز القرآن من خلال الربط بين النبوة والقرآن، فيقول: مثلما أن القرآن بكل معجزاته وحقائقه هو معجزة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بكل معجزاته ودلائل النبوة وكمالاته العلمية معجزة للقران الكريم، وحجة قاطعة على أنه كلام رب العالمين. إن القرآن أثبت النبوة بالإعجاز، والإعجاز بالتحدي، والتحدي بسكوتهم. يرى النورسي اختلاف المحققين في طرق الإعجاز ولكنه لا يرى التزاحم بين تلك الطرق بل يقول أن كلهم اختار جهة من جهات إعجازه ولكن يعتقد أن النظم القرآني هو الوجه الأول والأدق والأظهر من وجوه إعجاز القرآن الكريم، ولإظهاره وبيانه وضع كتابه القيم (إشارات الإعجاز) حيث قام بتفسير الآيات التي تعرض لتفسيرها بما يظهر هذا الوجه من إعجاز القرآن وكان منهجه فيه: البدء بمقدمة يجعلها مدخلا

[١] سعيد النورسي: المكتوبات، دار سوزلر، القاهرة، ص ٢٧٢.

بتفسير الآية أو الآيات ثم يبين نظم الآية مع ما قبلها وما بعدها ثم نظم الجمل في الآية ثم نظم الكلمات والحروف في الجملة، كما أشار قائلا "إن مقصدنا من هذه الإشارات تفسير جملة من رموز نظم القرآن لأن الإعجاز يتجلى من نظمه وما الإعجاز الزاهر إلا نقش النظم" "اعلم أن أســاس إعجاز القرآن، القرآن الكريم في بلاغة نظمه، وبلاغة النظم على قسـمين: قسـم كالحلية، وقسـم كالحلة" وقوله "وأدق وجوه إعجاز القرآن الكريم ما في بلاغة نظمه" ويعتقد أن كل حرف وكلمة معجزة بسـبب هذا النظم المعجز[1].

الإعجاز الحرفي في القرآن

يعتقد النورسي أن في الحرف العربي سرا إعجازيا في القرآن الكريم لا يعرفه ولا يذوق حلاوته إلا أصحاب المعرفة ويعلن بكل تصريح قائلا " ليست آيات القرآن ولا كلماتها معجزة وحدها وإنما كذلك حروف القرآن" يعني الحروف في مواضعها وأمكنتها فلا يمكن أن يقوم غيرها مقامها حيث تتولد من المعاني والأحكام والفوائد ما لا يمكن بتبديل الحرف وتغييرها ويقدم النورسـي مثالا من أم الكتاب " تأملت ذات يوم في ن المتكلم مع الغير في إياك نعبد وإياك نسـتعين وتحرى قلبي وبحث عن سـبب انتقال صيغة المتكلم الواحد إلى الجمع نعبد ...فبرزت فجأة فضيلة صلاة الجماعة وحكمتها من تلك النون إذ رأيت أنه بسـبب مشـاركتي للجماعة في الصـلاة التي أديتها يكون كل فرد منها بمثابة شـفيع لي، ورأيت أن كل فرد من أفراد تلك الجماعة شـاهد ومؤيد لما أظهرته من أحكام وقضـايا في قراءتي، فولّد ذلك عندي الشـجاعة الكافية لكي أقدم عبادتي الناقصـة وأرفعها مضـمومة مع العبادة الهائلة لتلك الجماعة إلى الحضـرة الإلهية المقدسة"[2]

[1] ينظر الإشارات لسعيد النورسي، ص ١٧٩-١٨١.

[2] سعيد النورسي: المكتوبات، دار سوزلر،القاهرة،٥٠٦-٥٠٧

الإعجاز في الكلمة

يعتقد النورسي أن الألفاظ القرآنية قد وضعت وضعا دقيقا حتى تمنح كل قارئ ما يحتاج إليه حسب استعداده العلمي والفكري والعاطفي والروحاني فيأخذ نصيبه وحظه من القرآن الكريم ويُوضح موقفه منه بالمثال من سورة النبأ: "والجبال أوتادا"، فيقول أن العامي يرى الجبال كالأوتاد المغروزة في الأرض كما هو ظاهر أمام عينيه، والشاعر حصته منها أنه يتخيل الأرض سهلا منبسطا وقبة السماء عبارة عن خيمة عظيمة ضربت على الأرض وزينت الخيمة بمصابيح وأن الجبال تتراءى وهي تملأ دائرة الأفق وتمس قممها أذيال السماء وكأنها أوتاد تلك الخيمة العظيمة، والبدوي يتصور سطح الأرض كصحراء واسعة وكأن سلاسل الجبال سلسلة ممتدة لخيم بأنواع شتى، والجغرافي يرى كرة الأرض عبارة عن سفينة تمخر عباب بحر المحيط الهوائي وأن الجبال أوتاد دقت على تلك السفينة للتثبيت والموازنة. أما المتخصص في أمور المجتمع فيرى أن الأرض عبارة عن مسكن وأن عماد حياة هذا المسكن هو حياة ذوي الحياة، وأن عماد تلك الحياة هو الماء والهواء والتراب وأن عماد هذه الثلاثة هو الجبال لأن الجبال مخازن الماء مشاطة الهواء حامية التراب من استيلاء البحر والتوحل، ويفهم الفيلسوف من لفظ هذه الآية أن الامتزاجات والانقلابات والزلازل التي تحصل في باطن الأرض تجد استقرارها وسكونها بظهور الجبال[1].

الإعجاز في كلمات الآية ونظمها

قال النورسي "هذه الجملة يعني قوله تعالى "ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك الخ مسوقة لإظهار هول العذاب، ولكن بإظهار التأثير الشديد لأقله،

فلفظ "لئن" في هذه الآية الكريمة، هو للإمكان وهو يوحي القلة،

ولفظ "مس" هو إصابة قليلة، يفيد القلة أيضا،

---

[1] تجديد الفكر الاسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي: المؤتمر العالمي، الهيئة العلمية،Y,bosna,Istanbul،ص٣٢٠.

ولفظ "نفحة" مادته رائحة قليلة، فيفيد القلة، وتنوين التنكير في "نفحة" هي لتقليلها، بمعنى أنها شيء صغير إلى حد لا يُعلم، فينكر،

ولفظ "من" للتبعيض، بمعنى جزء، فيفيد القلة، ولفظ "عذاب" هو نوع خفيف من الجزاء بالنسبة إلى النكال والعذاب، فيشير إلى القلة،

ولفظ "ربك" بدلا من القهار والجبار والمنتقم فيفيد القلة أيضا وذلك بإحساسه الشفقة والرحمة. والجملة تفيد أن العذاب إذا كان شديدا ومؤثرا مع هذه القلة، فكيف يكون هول العقاب الإلهي؟[1]

التكرار في القرآن

يعد النورسي التكرار في أسلوب القرآن وجها من وجوه إعجازه وبيّن حكمة التكرار قائلا: "إن القرآن كتاب ذكر وكتاب دعاء وكتاب دعوة، يكون تكراره أحسن وأبلغ بل ألزم، وليس كما ظنه القاصرون، إذ الذكر يكرّر والدعاء يردّد والدعوة تؤكد، إذ في تكرير الذكر تنوير، وفي ترديد الدعاء تقرير، وفي تكرار الدعوة تأكيد، واعلم أنه لا يمكن لأحد في كل وقت قراءة تمام القرآن الذي هو دواء وشفاء لكل أحد في كل وقت، فلهذا أدرج الحكيم الرحيم أكثر المقاصد القرآنية في أكثر صور، لا سيما الطويلة منها، حتى صارت كل سورة قرآنا صغيرا، فسهّل السبيل لكل أحد، دون أن يحرم أحدا، فتكرار الآيات إذن للدلالة على تكرار الاحتياج، وللإشارة إلى شدة الاحتياج إليها، ولتحريك اشتهاء الاحتياج إلى تلك الأغذية المعنوية"

يعتقد النورسي أن لا تكرار هناك في القرآن في حقيقة، فإنه تكرار صوري فقط فإنه يقول "اعلم أن لكل آية ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا، ولكل قصة وجوها وأحكاما وفوائد ومقاصد، فتذكر في موضع لوجه وفي آخر لآخر، وفي سورة لمقصد وفي أخرى

[1] تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي: المؤتمر العالمي، الهيئة العلمية،Y,bosna,Istanbul،ص٣٤٨.

لآخر، وهكذا فعلى هذا لا تكرار إلا في الصورة"[1].

ثم يبين النورسي حكمة التكرار بالأمثلة " إن جملة بسم الله الرحمن الرحيم هي آية واحدة تتكرر مائة وأربع عشـــر مرة في القرآن الكريم، ذلك لأنها حقيقة كبرى تملأ الكون نورا وضـــياء وتشـــد الفرش بالعرش برباط وثيق-كما بيناها في اللمعة الرابعة عشرة-فما من أحد إلا وهو بحاجة مسيسة إلى هذه الحقيقة في كل حين، فلو تكررت هذه الحقيقة العظمى ملايين المرات، فالحاجة ما زالت قائمة باقية لا ترتوي، إذ ليست هي حاجة يومية كالخبز بل هي أيضا كالهواء والضياء الذي يضطر إليه ويشتاق كل دقيقة.

وإن الآية الكريمة "وغن ربك لهو العزيز الرحيم" تتكرر ثماني مرات في ســـورة الشـــعراء، فتكرار هذه الآية العظيمة التي تنطوي على ألوف الحقائق في ســـورة تذكر نجاة الأنبياء عليهم الســـلام وعذاب أقوامهم، إنما هو لبيان أن مظالم أقوامهم تمس الغاية من الخلق، وتتعرض إلى عظمة الربوبية المطلقة، فتقتضي العزة الربانية عذاب تلك الأقوام الظالمة مثلما تقتضـــي الرحمة الإلهية نجاة الأنبياء عليهم الســـلام. فلو تكررت هذه الآية ألوف المرات لما انقضـــت الحاجة والشـــوق إليها، فالتكرار هنا بلاغة راقية ذات إعجاز وإيجاز.

وكذلك الآية الكريمة "فبأي آلاء ربكما تكذبان" ليس تكرارا حقيقيا، فإنها في كل مرة تعقب نعما جديدة، فالله يقولها عقب كل فصل منها مخاطبا الإنس والجن، فإن قيل، كيف جاءت بعد ذكر العذاب، فالجواب أن فعل العقاب وإن لم يكن نعمة فذكره ووصـفه والإنذار به من أكبر النعم، لأن في ذلك زجرا عما يسـتحق به العقاب، وبعثا على ما يستحق به الثواب، فإيراد هذه الآية الكريمة بعد ذكر جهنم وما فيها من العذاب يشـــير إلى نعمته تعالى بوصـــفها والإنذار بعقابها، وهذا مما لا شـــبهة في كونه

[1] تجديد الفكر الاسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي: المؤتمر العالمي، الهيئة العلمية،Y,bosna,Istanbul،ص٣٥٤.

نعمة، وأما مجيئها بعد ذكر الفناء فقيل، أي نعمة فيه؟، وأجيب بأجوبة كثيرة أحسنها، النقل من دار الغموم إلى دار السرور وإراحة المؤمن من الفجار كما وردت في الأحاديث"[1].

الإعجاز المعرفي العلمي

يقرر النورسي في أكثر من موضع من رسائله أن الآيات القرآنية ولا سيما معجزات الأنبياء إلى جامعة بدلالاتها وإشاراتها لأنواع العلوم والمعارف الحقيقية والحاجات البشرية وأكد على هذا المعنى عند تفسيره لقوله تعالى "قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي" وعنى بكلمات ربي القرآن الكريم، فهو حي يتدفق بالحياة، ويقول أن كل معجزة من معجزات الأنبياء عليهم السلام تشير خارقة من خوارق الصناعات البشرية كما تشير معجزة أبينا آدم عليه السلام إلى فهرس خوارق العلوم والفنون والكمالات فمثلا أن علم الهندسة يرتكز على اسم الله "العدل"، وعلم الطب على "الشافي" والعلوم التي تبحث في حقيقية الموجودات كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان على اسمه تعالى "الحكيم"، و"الميزان" يشير إلى العدالة والاقتصاد وعدم الإسراف ويخوض النورسي في باطن القرآن ويشاهد أن القرآن الكريم سبب الفلاح في الدارين فيحث على الإنصات إليه والعمل به كما يقول في الكلمة السابعة من الكلمات "إن القرآن الكريم يتلو آيات الكائنات في مسجد الكون الكبير هذا .فلننصت إليه، ولنتنور بنوره، ولنعمل بهديه الحكيم، حتى يكون لساننا رطبًا بذكره وتلاوته، إن جميع أهل الاختصاص والشهود وجميع أهل الذوق والكشف من العلماء المدققين والأولياء الصالحين متفقون على أن زاد طريق أبد الآباد، وذخيرة تلك الرحلة الطويلة المظلمة ونورها وبراقها ليس إلا امتثال أوامر القرآن الكريم واجتناب نواهيه، وإلا فلا يغني العلم والفلسفة والمهارة والحكمة شيئًا في تلك الرحلة،

---

[1] تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي: المؤتمر العالمي، الهيئة العلمية،Y,bosna,Istanbul،ص٣٥٤-٣٥٥.

بل تقف جميعها منطفئة الأضواء عند باب القبر اللّهم نوِّر قلوبنا بنور الإيمان والقرآن. اللهم أغننا بالافتقار إليك ولاتفقِرنا بالاستغناء عنك، تبرأنا إليك مِن حولنا وقوتنا والتجأ إلى حولك وقوتك فاجعلنا من المتوكلين عليك ولا تكِلنا إلى أنفسنا واحفظنا بحفظك وارحمنا وارحم المؤمنين والمؤمنات. وصلِّ وسلم على سيدنا محمد عبدك ونبيك وصفيك وخليلك وجمال ملكك ومليك صنعك وعين عنايتك وشمس هدايتك ولسان محبتك ومثال رحمتك ونور خلقك وشرف موجوداتك وسراج وحدتك في كثرة مخلوقاتك وكاشف طلسم كائناتك ودلال سلطنة ربوبيتك ومبّلغ مرضياتك ومعرف كنوز أسمائك ومعلم عبادك وترجمان آياتك ومرآة جمال ربوبيتك ومدار شهودك وإشهادك وحبيبك ورسولك الذي أرسلته رحمًة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وعلى ملائكتك المقربين وعلى عبادك الصالحين.